قيمة البحث العلمي

ومهمة المقتطف [1]

ايها المحفل الكريم

للحدود الفاصلة والحوادث الظاهرة في تاريخ امة من الامم او عصر من العصور او عمل من الاعمال ، اثر في النفس يهيب بها الى التأمل والاعتبار . فتختض قليلاً من سرعة اندفاعها وراء شؤون الحياة ، حتى تصوب اشعة البحث الى مطويات الماضي تستعرض ما فيها من عبر وتزود بآمالها عوامل المستقبل تستشف ما يكنه لها الدهر في طيات الغيب . ذلك هو الشعور الذي اختلج في نفسي لما عرفت اني واقف الساعة في هذا الجمع الكريم الذي احتشد هنا لكي يزجي الى المقتطف تحية في يوبيله الذهبي . فعرتني نشوة وتملكني خشوع وجلال لما تصورت انقضاء نصف قرن من تاريخ العمران . ليس لان نصف قرن شيء يذكر في ازل الكون وسرمده بل لانه كان حقيقة ، عصراً ذهبياً بما اصابته فروع العلم على تعددها من تقدم . وما نالته اساليب البحث على دقتها وتعقيدها من فوز وتأييد . وهذا الارتقاء ظاهر اثره في جميع مناحي الفكر ومسالك الحياة — فمن اكثر العلوم النظرية دقة وغموضاً ، الى اكثرها انطباقاً على الاعمال وابعدها اثراً في معايش الناس ، من ادق المعادلات الرياضية العالية الى اعوص الآراء الجديدة في تشكل الكون وبناء المادة ، الى اشهر المستنبطات والمخترعات في الصناعة والزراعة والمواصلات والمخاطبات وتدبير المنزل واسباب المرض ووسائل العلاج — كل ذلك اصاب من التقدم في عصر المقتطف مما يجعله من اعظم العصور مقاماً في التاريخ

وقد كان « المقتطف » في كل ذلك رسولاً امينا بين حضارة الشرق وحضارة الغرب . وميداناً رحباً تبارت فيه اقلام الكتاب على اختلاف اجناسهم ومعتقداتهم . ورائداً مقدماً يحمل منار العلم والبحث عالياً لا ينضب لمصباحه زيت ولا يطفأ له نور . ومدرسة جامعة شرقية في نشأتها وغايتها ، غربية في اسلوبها ومنهجها ، تنير وتثقف

---

(١) الخطبة التي القاها فؤاد افندي صروف احد محرري هذه المجلة في الحفلة التي اقامتها جامعة بيروت الاميركية للاحتفال بيوبيل المقتطف الذهبي

وتهذب وتضم ابناء الشرق في وحدة معنوية وثيقة في زمن عزّت فيه اسباب التضامن وكثرت عوامل التفرقة والانقسام

فكان جديراً بنا وقد بلغنا حدّاً فاصلاً في تاريخ هذا العمل الفذ، ان نقف هنيهة، كما وقفنا الليلة، نتأمل في معناه، وننظر في بعض الفوائد التي تجنى من المباحث التي عني بتحقيقها ونشرها

من الغريب ايها السادة اننا في هذا العصر الذي دعي بحق عصر العلم كما نسبت من قبله عصور الى الظران والحديد وغيرهما، في هذا العصر الذي تغلغل فيه العلم حتى اتصل بكل كبيرة وصغيرة من حياتنا اليومية افراداً وجماعات — اقول انهُ من الغريب ان نجد اناساً ينتقصون قيمة المباحث العلمية المحضة او لا يجلونها المحل اللائق بها بين اسباب الحضارة وأركان العمران. ولعل اعظم البواعث على هذا الموقف الشاذ ان كثيراً من المباحث العلمية لا تقاس فائدتهُ بالدرهم والدينار. فاذا دار الحديث في مجلس من المجالس على بعض المكتشفات الفلكية او الآراء الجديدة في شكل الكون وبناء المادة او تعليل الشوء وقدم الانسان اعرض كثيرون عن الخوض فيه او الاصغاء اليه وذلك لانهم يرون ان هذه المباحث عقيمة لا تفيد الناس فائدة عملية ما. وقد غاب عنهم اننا لا نستطيع الحكم فيما قد ينجم — او لا ينجم — من الفائدة العملية عن احد المباحث مهما كان ذلك المبحث بعيداً في الظاهر عن النفع العملي المطلوب. ولقد اثبت لنا تاريخ ارتقاء العلوم ان اكثر المكتشفات العظيمة لم تجن منها فائدة عملية ما في بدء عهدها، ثم صارت اساساً لاعظم ما نراه في عصرنا من مقوّمات العمران

من كان يقول ان المباحث الاولى في طبائع الكهربائية وتحقيق نواميسها تؤدي في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين الى استنباط التلغراف اللاسلكي والتلفون اللاسلكي حتى ليستطيع ابناء لندن ان يرقصوا على توقيع موسيقى تذاع من العالم الجديد فوق المحيط الاتلانتيكي، وحتى صار في وسع هواة اللاسلكي في القاهرة ان يصغوا الى الانباء والاغاني تذاع من فينا وروما وباريس ولندن احياناً. من كان يقول ان تلك المباحث النظرية المجردة يبنى عليها المولد الكهربائي والمحرك الكهربائي اللذان قلبا الصناعة رأساً على عقب، وقد يقلبان الزراعة ايضاً، وما يتعلق بهما من احوال الاجتماع البشري. وماذا اقول في اشعة اكس الفعالة في الصناعة والطب ومباحث مندل النظرية في الوراثة وما كان لها من الاثر الفعال في تربية الحيوانات والنباتات، وما قد

يكون لها من الاثر الفعال ايضاً في تربية نسل الانسان . كذلك من يستطيع القول بان مباحث العلماء الآن في بناء الجوهر الفرد مثلاً لا تُجعَل في المستقبل القريب جداً ، قاعدة لاستخدام القوى الهائلة المدخرة في دقائق المادة او القادمة من الفضاء على احجمة الاثير ؟ لذلك اصاب فراداي كبد الصواب حين فاه بجوابه المشهور لسيدة سألته في نهكم عن تجربة علمية جرّبها « ما فائدة تجربتك هذه يامستر فراداي » فقال « ما فائدة الطفل حين ولادته » ولما سأله غلادستون الشهير مثل هذا السؤال اجابه في دعة العالم وانفته « مهلاً ياسيدي فقد تجبي الحكومة منه اموالاً طائلة »

ثم ان من ينظر في كل بحث علمي الى الفائدة المادية اولاً دون غيرها ، مثله مثل من يقتل الدجاجة ليفوز ببيضتها الذهبية فيخسر الاثنتين معاً

انا اعرف ان لا قيمة لاكتشاف جديد او لرأي طريف ان لم تكن منه فائدة في ترقية العمران . ولكن كيف يرتقي العمران ؟ كيف نحكم ان لهذا الاكتشاف فائدة وليس لغيره مثلها ؟ او لا يحسب لتثقيف العقل وتهذيب النفس وترقية اساليب الفكر من اسباب ترقية العمران ؟ وهل من وسيلة لانارة الاذهان وتثقيف العقول افعل من درس الرياضيات وعلوم الطبيعة والحياة على اختلافها ؟ او لا يقام وزن ما لاثر البحث العلمي في ازالة جانب كبير من الخصومة الحادة بين اصحاب العلم الطبيعي واهل الحكم الديني ؟ أو لا يحسب التعاون بين العلماء والباحثين في مختلف الاقطار ، كما شاهده في المؤتمرات الدولية العلمية ، ومعهد التعاون الفكري الجديد ، وتبادل الاساتذة والطلبة ، من اسباب ترقية العمران لانه فعال في توطيد اركان الطمأنينة ونشر الوية الاخاء ؟ فعلينا ايها السادة ان لا نجعل العلم مطية الاخفاق بجعله عبداً من عبيد التجارة وخدم الاموال . علينا ان لا نضيّق امامنا سبل الارتقاء بحصر غايتنا وغرضنا من العلم في النفع المادي المباشر ، فما من شعب ولا من فرد يبلغ قصيّاً من الرقي اذا ضاق افق نظره الى الحياة

ايها السادة :

لا يرتقي العلم بازدياد المكتشفات العلمية وابتكار الآراء الطريفة فحسب ، بل ان ارتقاءه يقتضي كذلك نشر مبادئ العلوم وحقائقها على اسلوب يشوق الجمهور ويحثه على الاهتمام بها . فترقية العلم تقتضي دعاة كما تقتضي روّاداً ، ومقام الجندي المندفع في هذا الجهاد رفيع وتبيل كمقام القائد الحكيم

لا يداخلني ريب ما في ان التفوق لفرع واحد من فروع العلم الكثيرة هو سبيل

الارتقاء والتفوق في هذا العصر، وهو السبيل الذي يسير عليهِ الباحثون بفضل المعاهد والمعامل الكثيرة وما تنفقهُ عليها الحكومات والشركات والجامعات والجمعيات واهل البر والاحسان. لكن ازاء حسناتهِ الكثيرة ارى نقصاً كبيراً قد يوازيها، ذلك ان هذا السبيل يبعد بالسائرين عليهِ عن الوصول الى قبلة العمران الصميمة وهي تثقيف الجمهور، الذي لا يستطيع ان يجاري الباحثين في مباحثهم ولا ان يدرك اقوالهم ومصطلحاتهم، فتنشأ بين الجماعتين هوة بعيدة القرار تجعل التعاون بينهما لخير العمران متعذراً او صعب المنال. لذلك كان بسط الحقائق العلمية ونشرها لازمين ككشفها وتحقيقها، وهذا البسط والنشر هما جانب من المهمة العظيمة التي تضطلع باعبائها المجلات العلمية من نوع «المقتطف». واني واثق كل الثقة بانهُ متى آن الاوان لكتابة تاريخ للنهضة الشرقية الحديثة على قاعدتي الانصاف والتحقيق لا يسع الباحث ان يغفل نصيب المقتطف في اذكاء نورها وتارها. فالجهل ظلام والظلام عبودية، والعلم نور والنور حرية، والحرية تطلق اما العقل مجال الفكر وامام الهمة ميدان العمل. والفكر المتقد تدعمهُ الهمة العالية اساسٌ لكل عمل ناجح ونهضة حية وعمران صحيح

المقتطف والجامعة

في هذه الربوع الفيحاء نشأ المقتطف وترعرع، ومن هذا المنبسط الازرق الواسع المترامي عند اقدامها، الذي لازمهُ الوحي والالهام في كل ادوار التاريخ، اخذ المقتطف رحابة الصدر وبُعد النظر في معالجة المباحث التي عني بها حتى ذاع قوله «مناظرك نظيرك» ذيوع الامثال. وعلى هذه الجبال الشماء الراسخة تلق دروساً خالدة في الرسوخ والثبات على خدمة العلم ونشر العرفان

هنا تغذت روحهُ بالغاية النبيلة التي مضى في تحقيقها، نصف قرن غير وان ولا مذعان

هنا ومن اساتذة هذه الجامعة الاول، اخذ منشآهُ قبساً من النور نشرهُ في ارجاء الشرق

هنا في المعمل الكيماوي والمرصد الفلكي، في دار الكتب وفي منتدى الصلاة، في مواقف التعلم وفي مناصب التعليم، تعلما ان الحق غاية الادراك البشري، وان البحث العلمي المقرون بالذكاء والانصاف اهدى الوسائل الى كشف ذلك الحق، وان العلم والفضيلة والتعاون من الاركان الاساسية التي يجب ان يقوم عليها كل عمران صحيح، فراحا يذيعان بالقول البليغ وبالمثل الابلغ المبادئ السامية التي شيد عليها هذا المعهد المنير

فالمقتطف ابن هذه الجامعة وثمرة من ثمارها اليانعات ، ومن بواعث سرورنا وفخارنا ايها السادة ان الصلة بينها وبينهُ كانت ولا تزال وثيقة العرى وطيدة الاركان. تصفحوا مجلداته الثانية والستين تروا اسماء بلس وفانديك وورتبات و بوست ولويس و بورتر وضومط وداي وجرداق وخولي وحتي والمقدمي وغيرهم من اعلام هذه الجامعة عدا متخرجيها المنتشرين في كل اقطار المعمور ، سلسلة متصلة الحلقات من الاسماء المنيرة التي اتخذت لها من صفحات المقتطف منابر تذيع من ذراها اقوال الهداية والرشد، ومنابر تبسط من قممها انوار الحقيقة والعرفان

فنحن وانتم يا حضرة الرئيس والاساتذة ، جنود في جيش الحضارة يثير حرب النور على الظلام ، حرب الصحة على المرض ، حرب الفضيلة على الرذيلة ، حرب النظام على الفوضى ، حرب العلم والبحث على الجهل والاستسلام ، حرب التعاون والبناء على التخاذل والتدمير ، حرب الصلاح والاصلاح السائرة بالناس الى غايات الرفعة والنبل والكمال

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاعتبار وجوب فتح هذا الباب فتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل. فالمقالات الوافية مع الايجاز تستحق على الطولة

الاقطاع في الاسلام

حضرة العالمين منشئي المقتطف

قد اطلعت على نتف في عدة كتب في موضوع « الاقطاع في الاسلام » فاحببت جمعها وترتيبها على هذه الصورة لتنشر في المقتطف الاغر

عند ذكر الاقطاع تتجه الافكار عادةً الى اوربا حيث كان لهذا النظام في اخريات القرون المتوسطة الشأن الاعظم اذ ضربت اصولهُ في ربوعها برهة من الزمن كان لها